رسائل ثقافية

لبنان : من رياض نجيب الريّس

الادب انسان مجهول ، في هذا البلد كما في معظم بلداننا العربية . ولو توسعنا في الكلمة وأدخلنا معها الثقافة والفكر والفن، لقلنا انها جنازة كبيرة كثر المشيعون فيها حتى ضاع من كثرتهم نعش الفقيد، وازدحم المكان بهم حتى نسوا من هو الانسان المسجى بين أكوام الورود الشمعية الاصطناعية التي تغطيه ، ونسوا من اجل أي شيء اجتمعوا . وحتى لا ننسى ، فالفقيد هو الادب ، في هذا البلد كما في معظم بلداننا ، والجنازة جنازة الفكر ، والمشيعون هم المثقفون .

ولئن كان عرضي للمشهد الثقافي في لبنان في الموسم المنصرم يبدو على كثير من القتامة ، فذلك لأني تعمدت ان أضع على عيني نظارة سوداء. ليس من قحط في من يلونون مشهدنا الثقافي بلون الورود، ولا في من يصورونه مزدهراً كأبهى ما يكون الازدهار . وان كانت نظارتي السوداء لا ترى الواقع بلونه الطبيعي ، فبعدها عن الواقع ليس أعرض من بعد النظارة الوردية عنه ؛ وان ذهبت الى طرف سحيق فلأني أدرك أن الحقيقة لا تكمن في طرفي ولا في الطرف الآخر بل هي وسط بين هذا وذاك . وبعد ، فحتى الكنيسة لم يكن لها غنى ، لدى تطويبها لقديسيها ومرشحيها للقداسة ، عن ان تعين كل مرة، محامي الشيطان، موظفاً أولاً. وبعد ايضاً ، أليس خير دليل على حضارة بلد من البلدان اتساع صدره للنقد ولتصوير نشاطاته من جوانبها المختلفة ؟

تبدأ جنازة الادب سيرها في الموسم الماضي عبر مواقف عديدة ، يجري فيها تأبين الفقيد من قبل ذويه واهله واصدقائه ؛ كان اهمها موقف جمعية اصدقاء الكتاب ، التي ألقت كلمة اغتالت فيها المواهب الشابة الواعدة ، بتهمة اللاأخلاقية . اما عملية الاغتيال هذه فقد تمت بشكل بطيء، لم يكن القصد منه « التعذيب » بقدر ما كان محاولة في طمس معالم الجريمة . فقد كانت هذه العملية جزءاً من احتفال يحمل اسم اسبوع الكتاب ، تنظمه بعض الهيئات الثقافية كجمعية اصدقاء الكتاب والنادي الثقافي العربي الذي يقيم معرضاً سنوياً للكتاب في الجامعة الامريكية في بيروت ، كان التاسع هذه المرة .

فقد أدخلت جمعية اصدقاء الكتاب اعتبارات غير أدبية في تقريرها اختيار الكتب الفائزة بالجوائز ، وخاصة فيما يتعلق بجائزة القصة القصيرة. فجائزة الثلاثة آلاف ليرة التي منحت مناصفة كانت الضربة التي احدثت الوفاة . اما الاعتبارات الغير الادبية ، فهي اعتبارات اجتماعية : فقد استبعدت احدى المشتركات في المسابقة وحجبت عنها الجائزة رغم ان اربعة من اصل سبعة هم اعضاء لجنة التحكيم قرروا منحها الجائزة ، لاسباب « اجتماعية » لا تتعلق مطلقاً بتقييم مجموعتها القصصية ، لا أدبياً ولا فنياً .

اما الاعتبارات « الاجتماعية » التي حجبت من اجلها هذه الجائزة عن المرشحة لها، بعد ان تقرر منحها لها بأكثرية الاصوات، فهي ان المؤلفة المشتركة بالمسابقة عرفت بأنها امرأة متحررة تعيش حياتها الخاصة كما تشاء وتعبر عن هذه الحياة بما تكتب ، وما تكتبه لا يعجب الكثيرين من اعضاء اللجنة الحاكمة الوقورة . كما ان منح الجائزة لأديبة شابة

قد يعني في نظر الكثيرين تشجيع هذا النوع من الادب ، اي « الادب المتحرر » كما يحب ان يسميه بعض اعضاء اللجنة ، وهو ، دون النظر الى قيمته الفنية ودون تقييمه الادبي الصحيح ، أدب يرونه اباحياً فيه الكثير من الثورة والتحدي وفيه الكثير من تحطيم قيم المجتمع الزائفة . وهذا بحد ذاته يخلق سابقة خطرة، جمعية اصدقاء الكتاب في غنى عنها .

وكان للمرأة نصيب الاسد في المشاركة بتشييع الراحل . فللعطاء عند المرأة دائماً مواسم ، ووراء كل موسم ادبي ناجح امرأة او اكثر من امرأة . وقد اطل الموسم الادبي الاخير ووراءه زحف نسائي طويل . غير ان المرأة بقيت ظاهرة في حياتنا الادبية والفنية ، ولم تصبح بعد شيئاً عادياً ، متوقعاً ، مفروضاً ، وطبيعياً في مجالات الآداب والفنون . بقيت شيئاً ملفتاً للنظر : امرأة تكتب رواية، وامرأة تقيم معرضاً ، وسيدة تنظم شعراً ، وسيدة اخرى تعلق على الاحداث السياسية، ومراهقة تريد ان تعاني ، وطالبة تريد ان تختبر الحياة .

وبقيت المرأة مرأة . وبقي الناس — الجمهور الذي يقرأ الادب ويهتم بالفن — مستغربين اية خطوة نسائية في هذه المجالات ، انما لم يعودوا مستهجنين لها . وبقي جزء آخر من الناس — قد يقرأ او لا يقرأ الادب ، ويهتم او لا يهتم بالفن — يواجه حيرة غريبة من نوعها ، هي ان يجد امرأة مثقفة او فتاة جامعية او سيدة ما لا تعاني من ازمة فراغ ، وليس عندها طموح ادبي او فني ، ولا تريد ان ترى اسمها مطبوعاً وصورتها منشورة في كل صحيفة في البلد . لقد اصبح شيئاً نادراً بالفعل ان نجد اليوم امرأة كل طموحها ان تكون امرأة فقط ، مثقفة وذكية وقارئة ، لا اديبة كبيرة ولا فنانة عالمية ولا شاعرة عظيمة ولا معلنة عن نفسها في كل صحيفة ومجلة تصل الى بيت الجيران او تبيع اكثر من عشر نسخ .

وتتابع الجنازة سيرها وهي تحاول ان تلتقط انفاسها المتعبة ، فنعش الفقيد كما يبدو ثقيل الوزن. وهناك من يصر على ان يلقي كلمة « المثقفين » في الادب الراحل ، فيكتب احدهم في احدى المجلات الاسبوعية ، وهو محررها الادبي ، ان الشاعر الامريكي روبرت فروست قد ألقى قصيدة رثاء في موت الرئيس الامريكي جون كنيدي ، وانه كان لقصيدة شيخ الشعراء الامريكيين وقعها الحسن ، وان الشعر لم يقصر في تكريم الرئيس الراحل . ونسي المحرر الادبي المثقف ان روبرت فروست قد مات قبل اغتيال كنيدي بأشهر عديدة .

وتتبع ذلك كلمة « الوطنيين » في المأتم الكبير، المؤكدين ضرورة الاكثار من توزيع شهادات الوطنية في الادب، المصنفين الكتاب والمفكرين الى مناضلين مجاهدين وعملاء خونة ، المتخذين متاريس للتجارة بالقيم السياسية عن طريق بيع الادب — وشهاداتهم وتصنيفاتهم ومتاجراتهم بعيدة عن الادب والفن والفكر بعدها عن الوطنية والالتزام الحق .

اما الحكومة فقد ساهمت في مأتم الفقيد بأن تبرعت لعدد من الادباء بمنح تتفاوت مقاديرها ولا تصل الحد المرتجى ، تقديراً للنبوغ والانجاز والتحقيق ، الذي لم تجد البخس منه ولا ارخص ، فتكرمت عليه بهذا التشجيع ، — فقصرت امام امكانات فرد ، كسعيد عقل ، يمنح جائزة شهرية قدرها الف ليرة ، يتراوح الحائزون عليها ما بين لحام اوكسجين ، وفنان متوسط ، وخبير روسي في الاجناس ، ومغترب لبناني اكتشف اسماً فينيقي الاصل لمدينة امريكية ، وخبير بمسح الاراضي .

ويبدو ان هذه المأساة قد اوحت بفاجعة اكبر. فقد نعيت عند كتابة هذه السطور منى جبور ، صاحبة رواية « فتاة تافهة » وعدد من القصص القصيرة والمقالات النقدية ، وهي بعد في اول الطريق. ماتت دون ان يمنحها سعيد عقل جائزته، او تحس بها الدولة ، او تقوم شهرتها على شتم امرأة

اخرى لها او شتمها لامرأة اخرى . مسكين ادب الشباب في لبنان ، من دون منى جبور .

ودور النشر كانت كالصيدليات التي ساهمت في تركيب السم القاتل وتعديل جرعاته حتى لا يموت هذا الانسان المجهول دفعة واحدة . كلها تتخبط في فوضى نشر ، دون سياسة مدروسة او برامج معدة او اناس يقيمون ما ينشر . انها دكاكين لبيع السمانة قبل اختراع «السلف سرفيس». وهذه الاعتباطية في النشر قد حرمت اقلاماً شابة من النور ، وحرمت القليل الجيد مما نشر من التوزيع الصحيح .

والمعارض الفنية اصبحت كواجهات محلات «النوفوتيه» ، كل من استطاع ان يخلط لوناً بآخر ، وان يطرش خرقة ببيضاء ، اقام معرضاً . فاصبحت المعارض الفنية ظاهرة تثير القلق ، طالما الناقد الفني ما زال مفقوداً ، وطالما مقياس نجاح الفنان هو عدد اللوحات التي يبيعها ، لجماعة احترفت زيارة المعارض وشراء اللوحات وتشجيع الفن لأسباب لا علاقة لها بالفن مطلقاً . وما دامت الجدران في الفنادق والمقاهي والمكاتب متوفرة ، ما دامت هناك معارض فنية .

اما المسرح فما زال ضائعاً بين فرقتين ، احداهما تمثل بالفرنسية مسرحيات عفا عليها الدهر ، واخرى تترجم عن الفرنسية اعوص المسرحيات ، فلا يفهم المتفرج من المسرحية الا انها لكاتب اجنبي وبلغة عربية غير مفهومة ؛ بينما هناك من ينال جائزة المسرحية لثلاث سنوات متواصلة ، دون ان نسمع ان واحدة منها قد مثلت .

ويبقى سؤال طرح على انسي الحاج ، صاحب واحد من اروع الاقلام في هذا البلد : من هو احسن اديب في لبنان سنة ١٩٦٣ ؟ فأجاب : الجميع ؛ وفي العالم العربي ؟ فقال : القوات المسلحة ؛ وفي العالم ؟ فرد : الذكريات .

ويبقى الجميع ، بما فيهم الذكريات ، احسن الأدباء في لبنان .

العراق : من بدر شاكر السياب

جعل الاغريق للشعر ربة توحي للشعراء ما يكتبون ، بينما جعل العرب القدماء للشعر شيطاناً او شياطين ، ثم استعاض الانسان بعد ان تقدم في المدنية عن ذلك بالقول ان الشعر موهبة . غير ان الدكتور عبد الرزاق محيي الدين ، نائب رئيس جامعة بغداد وأحد الادباء العراقيين البارزين ، طلع علينا برأي جديد او هو بالحري بعث لأكثر الآراء حول الشعر رجعية . فقد سبق لبعض النقاد العرب القدامى ان سموا الشعر «صناعة» ، لكنها صناعة لا تمكن ممارستها الا بوجود الموهبة الى جانبها . اما الدكتور محيي الدين فقد زعم في محاضرته التي ألقاها في جمعية الكتاب والمؤلفين العراقيين ان في وسعه انشاء مدرسة لتخريج الشعراء : فالشعر عنده وعند ابناء مدرسته صناعة لا تختلف عن صناعة الزجاج مثلاً الا قليلا . الشعر في رأيهم صناعة وصياغة ، اما صدق التجربة والانفعال ، وقبل ذلك الموهبة ، فذلك من « خزعبلات » الشباب انصار الجديد ومن ابتكار دعاة التجديد